

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين أما بعد :

قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى :

[فصل (قدوم وفد ثقيف) : وقدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان هذه السنة
فأسلموا ، وكان سبب ذلك أن عروة بن مسعود سيدهم كان قد جاء رسول الله ﷺ
منصرفه من حنين والطائف وقبل وصوله إلى المدينة ، فأسلم وحسن إسلامه واستأذن
رسول الله ﷺ في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الله ﷻ فأذن له وهو يخشى عليه ، فلما
رجع إليهم ودعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل فقتلوه . ثم إنهم ندموا ورأوا أنهم لا طاقة لهم
بحرب رسول الله ﷺ ، فبعثوا وفداهم إليه في رمضان كما قدمنا وكانوا ستة ، فأول من
بصر بهم المغيرة بن شعبه الثقفي وكان يرعى فترك ذلك وأقبل بهم على رسول الله ﷺ
وعلمهم في الطريق كيف يسلمون عليه ، وسبق أبو بكر الصديق ﷺ المغيرة فبشر رسول
الله ﷺ بقدمهم . فأنزلهم ﷺ في المسجد وضرب لهم فيه قبة وكان السفير بينهم وبينه
خالد بن سعيد بن العاص ، وكان الطعام يأتيهم من عند النبي ﷺ فلا يأكلونه حتى يأكل
خالد قبلهم ، فأسلموا واشتروطوا أن تبقى عندهم طاغيتهم اللات وأن لا تخدم ، فلم
يجبهم ﷺ إلى ذلك ، وسألوا أن يخفف عنهم بعض الصلوات فلم يجبههم إلى ذلك .
فسألوا أن لا يهدموا بأيديهم طاغيتهم فأجابهم إليه . وبعث معهم أبا سفيان صخر بن
حرب والمغيرة بن شعبه لهدمها فهدماها . وعظم ذلك على نساء ثقيف واعتقدوا أن
يصيبهم منها سوء ، وقد طنز بهم المغيرة بن شعبه حين هدمها فخر صريعاً وذلك بتواطؤ
منه ومن أبي سفيان ليؤهمهم أن ذلك منها ، ثم قام يبيكتهم ويقرعهم ﷺ ، فأسلموا
وحسن إسلامهم . وجعل ﷺ إمامهم أحد الستة الذين قدموا عليه وهو عثمان بن أبي
العاص وكان أحدثهم سناً ، لما رأى من حرصه على قراءة القرآن وتعلمه الفرائض ،
وأمره أن يتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً ، وأن يقتدي بأضعفهم] .

هذا فصل عقده المصنف الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى وغفر له وأسكنه الجنة في ذكر قدوم وفد ثقيف إلى النبي ﷺ ، وكنا علمنا سابقاً أن النبي عليه الصلاة والسلام بعد حنين حاصر ثقيفاً في حصونهم المنيعة في الطائف وبقي ﷺ محاصراً لهم مدةً ، ولما طال حصاره لهم رأى ﷺ أن يرجع ، فرجع ﷺ ونزل إلى الحديبية وأحرم منها . وهو في رجوعه عليه الصلاة والسلام طلب بعض الصحابة من النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعو على ثقيف لعنادهم وإبائهم وامتناعهم وأيضاً شدة آذاهم وعداوتهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام وللإسلام ولصحابة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام - وكانت عداوة هؤلاء للنبي عليه الصلاة والسلام قديمة ، حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام جاءهم في الطائف في أوائل عهد الدعوة فرفضوه وأمروا سفهاءهم برميهِ ﷺ بالحجارة واستمروا على هذا الإباء والعناد - فرفع ﷺ يديه وقال : ((اللهم اهدِ ثقيفاً)) فدعا لهم ﷺ بالهداية ، وتركهم ومضى صلوات الله وسلامه عليه .

أيضاً عرفنا أن مالك ابن عوف النصري وكان قائد هوازن والكفار في معركة حنين لما فروا فرّ هو إلى الطائف ، ولما جاءت هوازن إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأسلم منهم من أسلم وكانوا يطلبون من النبي عليه الصلاة والسلام أن يعيد لهم سبيهم فخيرهم بين الذرية والمال فاختاروا الذرية ، فسألهم عليه الصلاة والسلام عن مالك ابن عوف قالوا إنه في ثقيف ، قال أبلغوه إن جاء مسلماً أعيد له أهله وذريته وماله وأعطيته مائة من الإبل ، فجاء وأسلم ﷺ وحسن إسلامه وولاه ﷺ على من أسلم من قومه . فأصبح ﷺ بعد ذلك حرباً على ثقيف بعد أن كان متحصناً عندهم ، وتعطلت مصالح ثقيف وأعمالهم وتجارتهم وأصبحوا في ضيق وشدة ، فبدأ عدد من عقلاءهم يفكرون بشكل جاد بالإسلام ؛ ولهذا ذكر المصنف رحمه الله أن عروة ابن مسعود الثقفي لحق النبي عليه الصلاة والسلام وهو في طريقه إلى المدينة وبايعه على الإسلام ، وطلب من النبي ﷺ أن يأذن له أن يعود إلى ثقيف إلى أهله وإلى قبيلته داعياً إلى الإسلام فأذن له النبي عليه الصلاة والسلام وهو خائف عليه ومشفق عليه ، لأنه يعرف ثقيف من هم في عنادهم وإبائهم واستكبارهم وأذاهم للمسلمين .

قال المصنف رحمه الله : ((وقدّم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان هذه السنة)) ؛ أي السنة التاسعة من الهجرة . ((فأسلموا)) .

((وكان سبب ذلك)) ؛ يعني سبب مجيء ثقيف إلى النبي عليه الصلاة والسلام :

((أن عروة بن مسعود سيدهم كان قد جاء رسول الله ﷺ منصرفه من حنين والطائف وقبل وصوله إلى المدينة ، فأسلم وحسن إسلامه واستأذن رسول الله ﷺ في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الله ﷻ فأذن له وهو يخشى عليه ، فلما رجع - أي عروة ابن مسعود - إليهم ودعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل فقتلوه)) وجاء في بعض الروايات أنه صعد ﷺ في أعلى منزله وأخذ يؤذن بالصلاة فجاء بعض هؤلاء ورموه بالنبل فقتلوه ، ولما كان ﷺ في النزع طلب من قومه أن يُدفن مع المسلمين المستشهدين في حصار الطائف ، ودفن معهم .

من هذه الأثناء بدأ يزداد الخوف عند ثقيف ؛ المصالح تعطلت ، ارتكبوا هذه الجناية العظيمة التي سترتب عليها من العواقب الشيء الكثير ، المخاوف احتفت بهم من كل جانب ، فبدؤا يفكرون تفكيراً آخر ، فقرروا إرسال وفد إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

قال : ((ثم إنهم ندموا ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ)) ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يريدون الآن التأمين لأنفسهم في أموالهم في تجارتهم في مصالحهم ، كل أمورهم تعطلت وأصبحوا في خوف في قلق ، فوجدوا أن أسلم حل أن يوفدوا إلى الرسول ﷺ ليرتبوا الأمر معه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((فبعثوا وفدهم إليه فقدموا عليه في رمضان كما قدمنا)) ؛ أي من السنة التاسعة من الهجرة .

((وكانوا ستة نفر)) ؛ برئاسة عبد يليل ابن عمرو .

((فأول من بصر بهم المغيرة بن شعبه الثقفي وكان يرعى)) ؛ أي الماشية خارج المدينة ، فرآهم قادمين ففرح بمجيئهم ومقدمهم .

((فترك الرعي وأقبل بهم على رسول الله ﷺ ، وعلمهم في الطريق كيف يسلمون عليه)) ؛ أي تحية النبوة وسلام النبوة .

((وسبق أبو بكر الصديق المغيرة)) ؛ أبو بكر ﷺ رأى المغيرة ومعه هؤلاء فأسرع إلى النبي عليه الصلاة والسلام ((فبشر رسول الله ﷺ بقدومهم)) ؛ وهذا القدوم مؤذن بصلاح الأمر ورؤيتهم للإسلام وتعرفهم على هذا الدين . والصحابة ﷺ يفرحون غاية الفرح عندما تأتي الوفود ، وهذا العام التاسع كما سيأتي البيان يُعرف بعام الوفود لكثرة الوفود التي جاءت

فيه إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه لأن الإسلام أصبح له شوكة عظيمة ومنعة وقوة وهيبة في النفوس .

قال : ((فأنزلهم ﷺ في المسجد وضرب لهم فيه قبة)) ؛ يعني وضعهم في مكان في المسجد وله عليه الصلاة والسلام في ذلك حكمة : أعظم ما يكون في ذلك أن يسمعوا كلام الله ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ، لأن سماع كلام الله ﷻ له أثر بالغ وعظيم في فتح القلوب وتأليف النفوس وترغيبها في هذا الدين العظيم ، والقرآن بركة عظيمة ، ويخطئ من الدعاة من يشتغل بالدعوة دون أن يُسمع في خطابه ودعوته كلام الله ﷻ ، فجعل لهم عليه الصلاة والسلام مكاناً في طرف المسجد حتى يروا المصلين ، يروا الصلاة ، يسمعون القرآن ، يسمعون ذكر الله ﷻ ، يرون ائتلاف المسلمين واجتماعهم على طاعة الله وعبادته والذل له ﷻ .

((وكان السفير بينهم وبينه خالد بن سعيد بن العاص . فكان الطعام يأتيهم من عند النبي ﷺ فلا يأكلونه حتى يأكل خالد قبلهم)) ؛ أي من الطعام المرسل لهم من النبي عليه الصلاة والسلام .

قال : ((فأسلموا)) ؛ هذا الإسلام أثر من مشاهدتهم للمسلمين ، ولأعمال الإسلام ، وللحمة والرابطة القوية بين المسلمين ، ولسماعهم كلام رب العالمين ، ولرؤيتهم لهذه الصلاة العظيمة .

رؤية الصلاة بحد ذاتها هي دعوة لدين الله وترغيب في هذا الدين ، لأنها عبادة جليلة هي أعظم عبادات هذا الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين . في إحدى الدول ذكر لي شخص أسلم وسبب إسلامه أنه رأى جماعة من المسلمين يصلون - ولأول مرة في حياته يرى مشهد الصلاة - وإذا بهم في أثناء صلاتهم جميعاً يخرون لله سجداً يضعون جباههم على الأرض . فقال في نفسه : الجبهة أشرف شيء في الإنسان ، ولا يمكن أن يضعها في الأرض بهذه الصفة إلا لمستحق ، ثم اتجه إليهم قال : لمن وضعت هذه الجباه ، فعرفوه بالله وعرفوه بالإسلام ؛ ففي مكانه وهو واقف أسلم ودخل في دين الله .

قال : ((فأسلموا واشتروا)) ؛ لما أرادوا الإسلام اشتروا عدة شروط ، منها ما قبله النبي عليه الصلاة والسلام ومنها ما رفضه ولم يقبله صلوات الله وسلامه عليه .

من جملة الشروط : ((أن يُبقي عندهم طاغيتهم وهي اللات وأن لا تُهدم)) ؛ اللات : صنم من أكبر الأصنام التي تُعبد في الجاهلية ، وقيل إن سبب تسميته بذلك : أن رجلاً كان يُلُثُ السوق على صخرة - يعجبه للحاج إكراماً لهم وإحساناً إليهم - فلما مات عبدوا تلك الصخرة من دون الله وأصبحت وثن يُعبد ويُقصد من الأنحاء يُدعى من دون الله ويُذبح له ويُندَر إلى آخره والله عَزَّوَجَلَّ يقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ [النجم: ١٩٢٣] ، اللات والعزى وجميع الأصنام هي في الواقع أحجار كانت ملقاة في الصحراء هنا وهناك ثم أُخذت وصُنعت على كيفية معيّنة وأصبحت إلهاً يُعبد ويُقصد ويلتجأ إليه ويُطلب منه المدد والعون والنصر والرزق والعافية والشفاء وغير ذلك . فاشتروا على النبي عليه الصلاة والسلام أن يبقي لهم اللات لا يُهدم . وأيُّ إسلام يكون وأيُّ دين يبقى إذا كان هذا الطاغية باقياً بينهم يقصدونه ويلتجئون إليه ويمارسون أعمالهم الشركية والكفرية عنده!!

((فلم يجبههم ﷺ إلى ذلك)) ؛ رفض عليه الصلاة والسلام ذلك لأن الإسلام جاء بهدم الأصنام ونبد الجاهلية ، وأعظم الجاهلية عبادة الحجر والصخر والشجر والالتجاء إلى مخلوقات وأتربة وأحجار وأشجار يُصرف لها من الذل والخضوع والدعاء والرجاء والخوف والتوكل ما لا يكون إلا لله ﷻ رب العالمين .

أيضاً مما سألوا النبي عليه الصلاة والسلام : ((وسألوا أن يخفف عنهم بعض الصلوات)) ؛ بدل أن تكون خمس صلوات في اليوم والليلة تخفف فتكون مثلاً صلاة أو صلاتين في اليوم والليلة .

((فلم يجبههم إلى ذلك)) .

((فسألوا أن لا يهدموا بأيديهم طاغيتهم ، فأجابهم إليه وبعث معهم أبا سفيان صخر بن حرب والمغيرة بن شعبة فهدهماها)) ؛ مرّ معنا في غزوة أحد أن أبا سفيان قال : «لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَى لَكُمْ» ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ» ، فهذا أبو سفيان رجلٌ أمضى ردهاً من عمره ووقتاً طويلاً من زمانه يُنافح عن الأصنام منافحة شديدة ثم اليوم يُقيّضه رب العالمين ﷻ ويرسله النبي

عليه الصلاة والسلام ليهدم اللات ؛ فينطلق ﷺ ليباشر هدم اللات هو والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما . قال : ((فهدماها)) ؛ يعني باسرا الاثنين هدم اللات والقضاء على هذا الوثن والطاغية من طواغيت الجاهلية ، ففُضي عليه على يدي هذين الصحابين الجليلين رضي الله عنهما وأرضاها .

قال : ((وعظم ذلك على نساء ثقيف)) ؛ لأن نساء ثقيف مضين سنوات طوال كلما بدت لإحداهن حاجة قصدت هذا الطاغية ، إن أرادت ولداً ، إن أرادت شفأً ، إن أرادت صحةً ، إن أرادت عافيةً ، تذهب إلى هذا الطاغية ثم تعرض عليه حاجتها ويظنون أنه يعطي وينفع ويضر .

((وعظم ذلك على نساء ثقيف واعتقدوا أن يصيبهما منها سوء)) ؛ اصطفَ نساء ثقيف والمغيرة يتقدم ليكسر بمسحاة في يده هذا الطاغية وعظم عليهن الأمر وهنّ يتحرّين تلك الساعة أن يغضب هذا الطاغوت على هذين الرجلين غضبة فتصيبهما مصيبة أو ينزل بهما داهية .

((وقد طُنزَ بهما المغيرة ابن شعبة عندما هدمها)) ؛ طُنَزَ : من الطُنَز وهو السخرية . ((فخر صريعاً)) ؛ يعني بدأ عملية الهدم بيده يكسّر الطاغية ثم ألقى المسحاة من يده وخر صريعاً ، فعندما خر صريعاً انبسطن النساء وفرحن أن طاغيتهم اللات دافع عن نفسه وأصاب هذا الذي جاء ليهدمه . ثم قام يضحك المغيرة وأكمل الهدم ، وجاء في بعض الروايات أنه ﷺ بدأ عملية الهدم والنساء مشدوهات ينظرن إليه يتحرين أن ينزل به المصاب ، ففي أثناء عملية الهدم ألقى المسحاة وفرار الخائف الهلع ، فاستبشر النساء وفرحن بهذا الذي حصل ثم رجع يضحك وكَمَّل عملية الهدم ، ليمكّن أن هذه الاعتقادات كلها جاهلية لا أساس لها ولا أصل وكلها تعلقات باطلة . وهذا يكثر في الناس عندما ينشئون منذ الصغر على التعلق مثلاً بشجرة أو التعلق مثلاً بضريح أو التعلق بأشياء من هذا القبيل تجدد في قلبه هيبة وخوفاً وتعلقاً نشأ معه بحجر لا يضر ولا ينفع ، ولا يعطي ولا يمنع ، ولا يخفف ولا يرفع وليس بيده شيء ، لكنها تعلقات ومخاوف نشأت معه منذ صغره جاهليةً وضلالاً وضياعاً في الدين والمعتقد . فطنز بهم ﷺ وقام بهذا الصنيع حتى يؤكد لهم أن هذا ليس بيده

أي نفع وليس بيده أي مضرة وإنما هو حجر من الحجار وصخرة من الصخور لا تعطي ولا تمنع ولا تخفض ولا ترفع بل لا تملك أن تدفع عن نفسها فضلاً عن أن تدفع عن الآخرين . قال : ((وذلك بتواطؤ منه ومن أبي سفيان ، ليوهمهم أن ذلك منها ، ثم قام يبيكتهم ويقرعهم . فأسلموا وحسن إسلامهم)) .

قال رحمه الله : ((وجعل ﷺ إمامهم أحد الستة الذين قَدِمُوا عليه)) ؛ وكان عليه الصلاة والسلام يتخير في الإمامة الأقرأ لكتاب الله ، وهنا تخير عليه الصلاة والسلام الأحرص منهم على التعلم والتفقه والسؤال والتحري ، فكان أحد هؤلاء الستة ((وهو عثمان ابن أبي العاص وكان أحدثهم سنًا ، لما رأى من حرصه على قراءة القرآن وتعلمه الفرائض)) . ((وأمره أن يتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً ، وأن يقتدي بأضعفهم)) ؛ يعني إذا أمّ الناس وكان فيهم ضعيف لا يتحمل الإطالة يقتدي به فلا يطيل .

هؤلاء الوفد أيضاً استغلوا هذه الفرصة بعد إسلامهم ورضاهم بهذا الدين فأخذوا يسألون أسئلة عديدة حول الإسلام ومعاني الإسلام ، فكانوا يسألون النبي عليه الصلاة والسلام وأيضاً يسألون بعض الصحابة رضي الله عنهم ، ومن جملة ما جاء في الأخبار ممّا سألوا عنه الصحابة : عندما تقرأون القرآن قراءة يومية وتختمونونه في أيام كيف تحبونه ؟ فقالوا نحزّب القرآن ثلاث سور في اليوم الأول - ومعنى ثلاث سور : البقرة والنساء وآل عمران - وخمس سور في اليوم الثاني ، وسبع سور في اليوم الثالث ، وتسع سور في اليوم الرابع ، وإحدى عشرة سورة في اليوم الخامس ، وثلاث عشرة هذه ست أيام ، واليوم السابع ق إلى نهاية ختم القرآن الكريم . فيكونون بذلك يختمون القرآن الكريم كل سبعة أيام .

وما من شك إذا كان للإنسان تحزيب معين منضبط في أيامه يجد أنه عنده ترتيب يلتزم به إلزاماً يومياً ، بخلاف إذا كان الإنسان يقرأ بدون تحزيب وبدون ترتيب معين فتجده أحياناً لا يقرأ شيئاً وأحياناً يقرأ شيئاً زائداً ، فالصحابة رضي الله عنهم كانوا يحزبون القرآن بهذه الطريقة ، فإذا مضى المسلم على هذه الطريقة فإنه يختم القرآن كل سبعة أيام ويكون في الشهر الواحد يختم القرآن أربع مرات .

قال رحمه الله :

[فصل (حجة أبي بكر الصديق) : وبعث ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ أميراً على الحج هذه السنة ، وأردفه علياً ﷺ بسورة براءة : أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وينبذ إليهم عهودهم إلا من كان ذا عهد مقدّر فعهدته إلى مدته] .

قال رحمه الله تعالى : ((فصل)) وأورد فيه حجة أبي بكر الصديق بالناس حيث أرسله عليه الصلاة والسلام أميراً على الحج وكانت هذه الحجة في السنة التاسعة من الهجرة . قال المصنف رحمه الله : ((وبعث أبا بكر الصديق أميراً على الحج هذه السنة)) ؛ أيضاً السنة التي قبلها وهي السنة الثامنة للهجرة حج بعض المسلمين وكان الحج في السنة الثامنة وفي السنة التاسعة التي حج فيها أبي بكر الصديق مختلطاً ، في الحجاج من هو مسلم وفي الحجاج من هو مشرك ، فأمره ﷺ على الناس وخرج ﷺ أميراً واتجه إلى مكة . وبعد أن خرج نزل على النبي عليه الصلاة والسلام سورة براءة .

((وأردفه علياً ﷺ بسورة براءة)) ؛ أي أرسل علياً يتبع أبا بكر ﷺ ومعه إعلان البراءة التي في صدر هذه السورة الكريمة ؛ براءة الله ﷻ ورسوله ﷺ من المشركين .

((وأن لا يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان)) ، وأيضاً الإعلان بأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة . فلحق علي ﷺ أبا بكر الصديق في الطريق وقال له أبو بكر كما جاء في بعض الروايات أمير أو مأمور ؟ قال : بل مأمور ، فكان تحت إمرة أبي بكر لكنه وكل إليه النبي عليه الصلاة والسلام أن يعلن البراءة وأنه لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، وكان من عادة عدد من الجاهليين رجالاً ونساءً الطواف بالبيت عراً مجردين تماماً من الثياب كما خلقهم الله ، وبعض النساء تطوف حول البيت وهي عارية تماماً كما خلقها الله وتقول : "اليوم يبدو بعضه أو كله ، فما بدا منه فلا أحلّه " !! جاهليه جهلاء وضلاله عمياء ، فجاء الله ﷻ بهذا الإسلام ، بهذا النور العظيم ، فأزيلت كل هذه الجاهليات وجاء هذا الإعلان المبارك وأُعلن في السنة التاسعة من الهجرة وأعلن علي ﷺ ذلك ورفع صوته بهذا الإعلان ، وكان ﷺ يواصل الإعلان حتى ينتشر انتشاراً عاماً وأيضاً كان معه مبلغين له يعاونونه ، فإذا بُحَّ صوته بدأ المبلغون يبلغون ذلك ومنهم أبو هريرة ﷺ ، حتى إن أبا هريرة يقول : "كنت أناادي حتى صَحِلَ صوتي " يعني بُحَّ حلقي من المناداة " لا

يطوف بالبيت عريان ، لا يطوف بالبيت مشرك ، لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة " ؛
إعلانات عامة مدوّية في أرجاء مكة ، وفيها إعلان حرب عام على كل مشرك ، من كان
بينه وبين النبي ﷺ عهد وله أمد فعهدته إلى مدته ، وإذا كان ليس له أمد فعهدته أربعة أشهر
، ثم يُنبذ لكل ذي عهد عهده وإعلان.

قال : ((ونبذ إليهم عهدهم إلا من كان ذا عهد مقدّر فعهدته إلى مدته)) ؛ جاء في
الصحيحين عن أبي هريرة قال : ((فَلَمْ يَحْجَّ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ الَّذِي حَجَّ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُشْرِكٌ)) يعني في العام التاسع كان في الحجاج من هم مشركون ، والعام الثامن
أيضاً من باب أولى في الحجاج من هم مشركون ، ثم أُعلن في العام التاسع هذا الإعلان العام
المدوّي نُشر في أرجاء مكة " لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان " فلما جاء
عليه الصلاة والسلام إلى بلد الله الحرام ليحج حجة الوداع كان البلد نظيفاً من معالم الجاهلية
ومن ضلالات المشركين ومن وجود المشركين فيما بين الحجاج ومن صور الجاهلية المنكرة
الشنيعة مثل الطواف بالبيت وهم عراة إلى غير ذلك ؛ كل هذه المعالم انتهت .

قال رحمه الله تعالى :

[(تواتر الوفود على الرسول ﷺ) ؛ وتواترت الوفود هذه السنة وما بعدها على رسول
الله ﷺ مدعنة بالإسلام ، داخلين في دين الله أفواجا كما قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ
وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ
كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ ، وبعث ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن ومعه أبو موسى الأشعري رضي
الله عنهما، وبعث الرسل إلى ملوك الأقطار يدعوهم إلى الإسلام ، فانتشرت الدعوة ،
وعلت الكلمة ، وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً] .

قال رحمه الله تعالى : ((وتواترت الوفود هذه السنة وما بعدها على رسول الله ﷺ)) ؛ أي
تواترت وتكاثرت الوفود ، وكان هذا العام - العام التاسع من الهجرة - يُعرف عند أهل العلم
بعام الوفود لكثرة الوفود التي أتت إلى المدينة ، وهؤلاء الوفود كانوا يأتون على عادة العرب في
وفودهم يرسلون أشرفهم وأحياناً يأتي أعيانهم : أمراءهم ، قادتهم ، ملوكهم ، ومنهم من يأتي

وفده لإعلان الإسلام طوعية والانقياد لدين الله ﷻ ، ومن الوفود من يأتي للمصالحة ، بحيث أنه يبقى على دينه ويدفع الجزية ويبقى في مكانه مثل ما حصل من وفد نجران . فالشاهد أن الوفود كثرت في هذا العام حتى ذكر في المصادر في عدد الوفود التي قدمت تزيد على الستين وفداً وهذه الوفود تمثل قبائل كبيرة وجماعات كثيرة من الناس يقدمون إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

فكثرت الوفود في هذا العام التي تقدم إلى مدينة النبي عليه الصلاة والسلام ((مذعنة بالإسلام داخلين في دين الله أفواجاً)) ؛ هذا الغالب العام في الوفود أنهم يأتون مدعنين بالإسلام ، إلا أن بعض الوفود أو قلة منهم جاؤوا للمصالحة ولم يقبلوا دين الإسلام .

قال : ((كما قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [سورة النصر])) ، فهذا بعد فتح مكة انهارت الوفود وتزايد عدد الداخلين في دين الله ، ولم يكن دخول أفراد بل أصبح الدخول أفواج ، تجده في اليوم الواحد يدخل في الإسلام فوج بالمئات بالعشرات بالأعداد الكبيرة جداً ؛ يُسلم قائد القبيلة أو قائد العشيرة أو سيد القوم فيسلم من تحته . وعرفنا مسبقاً أن القبائل كانت تلوم في قريش وتنظر في حالها ، فلما انتهى أمر قريش وانتهت أيضاً العثرة الأخرى هوازن وثقيف أصبحت القبائل تنهال على المدينة وتقدم إليها وأصبح الدخول في دين الله تبارك وتعالى أفواجا .

وكانت هذه الوفد أيضاً متفاوتة ، بعضهم أعراب وجفاة في التعامل ، ومن هؤلاء الوفود وفد جاء إلى المدينة من الأعراب على جفوتهم وغلظتهم ، فجاءوا عند بيت النبي عليه الصلاة والسلام وأخذوا ينادونه في حاجتهم وهو في حجرته بصوت عالي وفي هذا جاء قول الله تعالى : ﴿ إِنِّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [الحجرات: ٤-٥] ، مطلوب مراعاة الأدب معه صلوات الله وسلامه عليه وعدم رفع الصوت ﴿ إِنِّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ [الحجرات: ٣] وهو عليه الصلاة والسلام محترم صلوات الله وسلامه عليه حيّاً وميتاً .

فالشاهد : من أصناف الوفود من كانوا أهل جفوة في التعامل ، فكان عليه الصلاة والسلام يعاملهم بالحلم والصفح والعفو والمعاملة اللينة الطيبة مما كان له الأثر البالغ على نفوس هؤلاء في الدخول في دين الله أفواجا .

كان أيضاً من جملة هؤلاء الوفود وفد نجران وجاء حاكمان لهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام أحدهما يقال له العاقب والآخر السيد ، فعرض ﷺ عليهما الإسلام فأبيا قبول الإسلام ، وجادلهما وبين لهما حقيقة عيسى عليه السلام وتلا عليهم هذه قول الله ﷻ : ﴿ إِنِّ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿ [آل عمران: ٥٩-٦٠] فأبوا ذلك كله ، فدعاهم للمباهلة بعد أن أقام عليهم الحجة وبين الدليل وأزال العذر ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] ، فأبوا أن يباهلوه لأنهم يعلمون أنهم هم الكاذبين ، لكنهم رضوا بالمصالحة وأن يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ورجعوا إلى نجران .

فالشاهد أن الوفود كانت تأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام وغالبهم يأتي يعلن إسلامه وإسلام قومه ، يبايعون عنهم وعن قومهم بالإسلام ، ودخل من فضل الله ﷻ ومنه الناس في دين الله أفواجا .

قال رحمه الله : ((وبعث ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن ومعه أبو موسى الأشعري رضي الله عنهما)) ؛ وقيل إنه جعل كلا منهما في ناحية من اليمن وقال لهما : ((بشرّا ولا تنفرا ، تطاوعا)) دعاهما للتطاول والتبشير والرفق واللطف والإحسان فقاما بما أمرهما به صلوات الله وسلامه عليه خير قيام .

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ : ((إنك تأتي قوما من أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض

عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنياءهم فترد على فقراءهم ...)) إلى آخر الحديث .

قال : ((وبعث الرسل إلى ملوك الأقطار يدعوهم إلى الإسلام)) ؛ وسيأتي عند الحافظ ابن كثير رحمه الله في فصل لاحق ذكر الرسل الذين بعثهم النبي عليه الصلاة والسلام وذكر أسماءهم ، وأيضاً حديث عن آثار تلك البعوث وتلك الرسل التي بعثها النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((فانتشرت الدعوة ، وعلت الكلمة ، وجاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً)) .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (حجة الوداع) ؛ يُذكر فيه ملخص حجة الوداع وكيفيتها بعون الله ومنه وحسن توفيقه وهدايته فنقول وبالله التوفيق : صلى رسول الله ﷺ الظهر يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة من سنة عشر بالمدينة ، ثم خرج منها بمن معه من المسلمين من أهل المدينة ومن تجمّع من الأعراب فصلى العصر بذي الحليفة ركعتين وبات بها . وأتاه آت من ربه ﷻ في ذلك الموضع . وهو وادي العقيق . يأمره عن ربه ﷻ أن يقول في حجته هذه : حجة في عمرة . ومعنى هذا أن الله أمره أن يقرن الحج مع العمرة ، فأصبح ﷺ فأخبر الناس بذلك ، وطاف على نسائه يومئذ بغسل واحد ، وهن تسع ، وقيل إحدى عشرة . ثم اغتسل وصلى في المسجد ركعتين وأهلّ بحجة وعمرة معاً . هذا الذي رواه بلفظه ومعناه عنه ﷺ ستة عشر صحابياً منهم خادمه أنس بن مالك ﷺ ، وقد رواه عنه ﷺ ستة عشر تابعياً ، وهو صريح لا يحتمل التأويل إلا أن يكون بعيداً ، وما عدا ذلك مما جاء من الأحاديث الموهمة المتمتع أو ما يدل على الأفراد ، فلها محل غير هذا تذكر فيه . والقرآن في الحج هو الأفضل عند أبي حنيفة ، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل ، وقول للإمام أبي عبد الله الشافعي ، وقد نصره جماعة من محققي أصحابه ، وهو الذي يحصل به الجمع بين الأحاديث كلها . ومن العلماء من أوجبه ، والله أعلم . وساق ﷺ الهدى من ذي الحليفة ، وأمر من كان معه هدي أن يهّل كما أهل ﷺ . وسار ﷺ

والناس بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله أماً لا يُحصون كثرة ، كلهم قدم ليأتهم به ﷺ . فلما قدم ﷺ مكة طاف للقدوم ثم سعى بين الصفا والمروة ، وأمر الذين لم يسوقوا هدياً أن يفسخوا حجهم إلى عمرة ويتحللوا حلاً تاماً ، ثم يهلوا بالحج وقت خروجهم إلى منى ، ثم قال : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة " ، فذلك هذا أنه لم يكن متمتعاً قطعاً ، خلافاً لزاعمي ذلك من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم . وقدم علي ﷺ من اليمن فقال له ﷺ : " بم أهلت ؟ قال : بإهلال كإهلال النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : إني سقت الهدي وقرنت " . روى هذا اللفظ أبو داود وغيره من الأئمة بإسناد صحيح ، فهذا صريح في القران ، وقدم علي ﷺ من اليمن هدياً ، فأشركه ﷺ في هديه أيضاً فكان حاصلهما مائة بدنة . ثم خرج ﷺ إلى منى فبات بها وكانت ليلة الجمعة التاسع من ذي الحجة . ثم أصبح فسار إلى عرفة وخطب بنمرة خطبة عظيمة شهدها من أصحابه نحواً من أربعين ألفاً رضي الله عنهم أجمعين ، وجمع بين الظهر والعصر ثم وقف بعرفة . ثم بات بالمزدلفة وجمع بين المغرب والعشاء ليلتئذ ، ثم أصبح فصلى الفجر في أول وقتها ، ثم سار قبل طلوع الشمس إلى منى فرمى جمرة العقبة ونحر وحلق . ثم أفاض فطاف بالبيت طواف الفرض وهو طواف الزيارة ، واختلف أين صلى الظهر يومئذ ، وقد أشكل ذلك على كثير من الحفاظ . ثم حل من كل شيء حرم منه ﷺ . وخطب ثاني يوم النحر خطبة عظيمة أيضاً ، ووصى وحذر وأندر وأشهدهم على أنفسهم أنه بلغ الرسالة . فنحن نشهد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين . ثم أقبل ﷺ منصرفاً إلى المدينة وقد أكمل الله له دينه] .

ثم عقد الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الفصل في تلخيص حجة الوداع وهي في العام العاشر من الهجرة ، قال : ((يُذكر فيه ملخص حجة الوداع وكيفيتها بعون من الله ومنه وحسن توفيقه وهدايته)) ؛ والحافظ ابن كثير هنا يذكر ملخصاً لحجة النبي ﷺ ، وأشار رحمه الله في كتابه البداية والنهاية أن أهل العلم اعتنوا كثيراً بحجة رسول الله ﷺ من قدماء

الأئمة ومتأخريهم ، فلا يزال أهل العلم من قديم وحديث يفردون المصنفات الخاصة بذكر حجة رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال رحمه الله تعالى : ((صلى رسول الله ﷺ الظهر يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة من سنة عشر بالمدينة)) ؛ ذكر هنا أن ذلك يوم الخميس وهو قول ابن حزم ، ويرى ابن القيم ورجح أيضاً ذلك ابن كثير رحمه الله تعالى في البداية والنهاية أنّ خروجه كان يوم السبت ، وكلّ منهما ناقش ابن حزم في قوله أن ذلك كان يوم الخميس .

قال : ((ثم خرج منها - أي من المدينة - بمن معه من المسلمين من أهل المدينة ومن تجمع من الأعراب)) ؛ تجمعت أعداد كبيرة جداً في المدينة - لما علموا أنّ النبي عليه الصلاة والسلام في هذه السنة سيخرج بنفسه ﷺ - ليخرجوا مع النبي عليه الصلاة والسلام ، والغرض من ذلك أن يشرفوا بمصاحبته ﷺ في أداء هذه الطاعة العظيمة وليشاهدوا أعمال الحج ومناسكه في عمله ﷺ وليقتدوا به ﷺ وهو القائل : ((خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ)) . فكانوا أحرص ما يكون على القرب منه ومشاهدة أعماله صلوات الله وسلامه عليه ، وحج معه أعداد كبيرة جداً حتى قيل إن الذين شاركوا النبي ﷺ وخطبهم في عرفة وكانوا أمامه يبلغون مائة ألف حاج .

قال : ((فصلى العصر بذى الحليفة ركعتين)) ؛ صلى ركعتين باعتبار أنه ﷺ ضرب في الأرض مسافراً . ((وبات بها)) ؛ أي أنه ﷺ صلى المغرب وصلى العشاء ركعتين ، وأيضاً صلى الفجر والظهر ثم انطلق إلى مكة .

قال : ((وأتاه آت من ربه ﷻ في ذلك الموضع . وهو وادي العقيق . يأمره عن ربه ﷻ أن يقول في حجته هذه حجة في عمرة)) ؛ والحديث في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما . ومعنى حجة في عمرة : أي قران .

قال رحمه الله تعالى : ((ومعنى هذا أن الله أمره بأن يقرن الحج مع العمرة)) ؛ فهو عليه الصلاة والسلام - على الصحيح من أقوال أهل العلم وشواهد ذلك كثيرة ودلائله غفيرة ، ذكر وأشار ابن كثير كما سيأتي إلى طرف منها - حجّ قارناً وساق معه الهدى من الميقات . فلما أهلّ عليه الصلاة والسلام بالحج قارناً قال على إثر ذلك : ((اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة)) يعني اجعله لوجهك خالصاً لا يبتغى به إلا وجه الله ﷻ ؛ وهذا مطلب

مهم وعظيم جداً ينبغي للمسلم أن يتنبه له بين يدي هذه العبادة العظيمة حج بيت الله الحرام أو الاعتماد أو كذلك عموم الطاعات ، يتنبه الإنسان أن يكون عمله لله ، لأن الله **وَعَلَّكَ لَا يَقْبَلُ عَمَلَ الْعَامِلِ إِلَّا إِذَا أَخْلَصَ اللَّهُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ))** .

وفي زماننا هذا المصيبة عظيمة لدى كثير من الحاج والمعتمرين ؛ أكثر ما يتجه اهتمامه في المشاعر - في عرفات في المزدلفة في المطاف في السعي ... الخ - أخذ الصور التذكارية إما الثابتة أو المتحركة يجمعها ثم يأخذها معه إلى البلد ليُري الناس . فهل حججتَ لتري الناس أو لترضي ربك وتطلب ثوابه **ﷻ** ؟ الحج عبادة ؛ عندما تقف بعرفات ، عندما بمزدلفة ، عندما تقف بمنى ، عندما تطوف ؛ هذه أعمال بينك وبين الله ، **ﷻ** . رأيت بنفسك بعض الحاج - أصلحنا الله وإياهم - في بعض المشاعر وقف وأعطى كاميرا التصوير لرفيق له ووقف بعيداً ثم لما استعد رفيقه ليصور رفع يديه على هيئة الداعي ، ولما التقط الصورة التذكارية نزل يديه . ماذا تعني هذه الصورة ؟ واليدان لم تُرفع ليدعو الله ، لا والله ، رُفعت لتأخذ صورة تذكارية ، في الحديث : ((إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدَهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)) ، ثم يأخذ الصورة ويرى أصحابه وزملاءه ورفقائه ويعلقها في مجلسه أو يضعها في ألبوم ويضعها في مكتبه وإذا زاره الزائر يقول هذا الألبوم تفضل ممكن تراني في مكة وفي المشاعر وفي .. افتح صفحة ٢٠ تراني أدعو الله عند الجمرات وعند كذا .. ، هذا ما هو؟ هل هذا عبادة؟! فنبينا عليه الصلاة والسلام يقول : ((اللهم حجاً لا رياء فيه ولا سمعة)) .

ولهذا هذه نصيحة لوجه الله ؛ من عنده صور تذكارية أخذها يمسحها ويجعل هذا عمل لله **ﷻ** يرجو به وجه الله ، يطلب به ثوابه ، يرجو به شيئاً يراه يوم القيامة . يقول ربنا **ﷻ** : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا

﴿ [الإسراء: ١٨-١٩] . نسأل الله **ﷻ** أن يجعل أعمالنا كلها لوجهه خالصة لا رياء فيها ولا سمعة

قال رحمه الله تعالى : ((فأصبح ﷺ فأخبر الناس بذلك)) ؛ أي أنه عليه الصلاة والسلام حج قارناً .

((وطاف على نسائه يومئذ بغسل واحد وهن تسع ، وقيل : إحدى عشرة)) ؛ أي أتى نسائه وكن تسع على الصحيح وطاف عليهن أي أتاهن جميعاً بغسل واحد .

((ثم اغتسل وصلى عند المسجد ركعتين)) ؛ صلى عليه الصلاة والسلام ركعتين لأنه أيضاً في الحديث السابق قال : ((أتاني اللَّيْلَةُ آتٍ مِنْ رَبِّي، فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ)) . والصحيح أن هذه الصلاة ليست صلاة نية الإحرام ، ولم يرد في السنة صلاة تختص بنية الإحرام ؛ وإنما هذه صلاة تتعلق بهذا المكان المبارك .

((وأهلّ بحج وعمرة معاً ، هذا الذي رواه بلفظه ومعناه عنه ﷺ ستة عشر صحابياً ، منهم خادمه أنس بن مالك ، وقد رواه عنه ﷺ ستة عشر تابعياً ، وهو صريح لا يحتمل التأويل إلا أن يكون بعيداً -أي التأويل- وماعداً ذلك مما جاء من الأحاديث الموهمة التمتع أو ما يدل على الأفراد فلها - يعني الجواب عنها- محل غير هذا تُذكر فيه)) ؛ وأيضاً العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد قال : " أحرم ﷺ قارناً لبضعة وعشرين حديثاً صحيحة صريحة في ذلك " ثم ساقها رحمه الله .

قال : ((والقران في الحج هو الأفضل عند أبي حنيفة - لفعل النبي عليه الصلاة والسلام - ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل ، وقول للإمام أبي عبد الله الشافعي وقد نصره جماعة من محققي الأصحاب وهو الذي يحصل به الجمع بين الأحاديث كلها . ومن العلماء من أوجبه ، والله تعالى أعلم)) . والمسألة فيها خلاف بين أهل العلم :

- من أهل العلم من قال : الأفضل الأفراد ؛ وذلك ليتسنى للإنسان أن يأتي بحج مستقل وبعمره مستقلة كل منهما في سفر خاص .

- ومن أهل العلم من يرى : أن التمتع هو الأفضل ، وهو الأقرب من أقوال أهل العلم لدلالة قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((لو استقدمت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى ولما جعلتها عمرة)) .

قال : ((وساق ﷺ الهدى من ذي الحليفة)) ؛ وهي التي تُعرف الآن بأبيار علي .

((وأمر من كان معه هدي أن يُهلّ كما أهل ﷺ)) ؛ أي من ساق الهدي يُهل كما أهل عليه الصلاة والسلام أي قارناً .

((وسار ﷺ والناس بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله أماً لا يحصون كثرة ، كلهم قد قدم ليأتم به ﷺ)) أعداد غفيرة جداً قدمت لتشرف بصحبته عليه الصلاة والسلام في هذه الحجة المباركة وليتعلموا من هديه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((فلما قدم ﷺ مكة)) ؛ جاء في الزاد لابن القيم : " وكان دخوله لأربع خلون من ذي الحجة في يوم الأحد ، وكان الخروج لست بقين من ذي القعدة " فتكون مسافة الطريق عشرة أيام . فهذه عشرة أيام أمضاها عليه الصلاة والسلام في الطريق من مكة إلى المدينة ، وكان هذا هو الوقت الذي تُقطع فيه المسافة بين مكة والمدينة ، أما في زماننا هذا فهذه المسافة تُقطع في أقل من عشر ساعات وليس عشرة أيام !! ، خمس ساعات ست ساعات ويكون الإنسان قد وصل إلى مكة . أيضاً أمر آخر والنعمة علينا عظيمة ويجب على المسلم أن يستشعر النعمة وأن يشكرها ؛ تنطلق من مكة إلى المدينة وأنت في غرفة مكيفة وكرسي مريح وإذا أردت الماء البارد أو الطعام أو الشراب في مكانك وأنت جالس في الجو البارد لا يمر بك وهج الصحراء ولا حرارة الشمس ، وتصل إلى مكة ولا يُرى عليك أثر السفر ، بينما في ذلك الوقت يصلون إلى مكة وأثر السفر واضح من الغبار وحرارة الشمس ووهج الصحراء .. الخ .

((فلما قدم ﷺ مكة طاف للقدوم)) ؛ وكان ﷺ قبل أن يدخل مكة اغتسل . والطواف الذي طافه طواف قدوم لأنه قارن صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الطواف سنة في حق القارن والمفرد .

((ثم سعى بين الصفا والمروة ، وأمر الذين لم يسوقوا هدياً أن يفسخوا حجهم إلى عمرة)) ؛ بحيث يكونوا متمتعين ، وهذا إرشاد منه ﷺ لهم إلى الأفضل .

((ويتحللوا حلاً تاماً ، ثم يهلوا بالحج وقت خروجهم إلى منى ، وقال : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة ")) ؛ وهذا أخذ منه من أخذ من أهل العلم أن الأفضل هو التمتع ، وأن التمتع هو أفضل هذه الأنساك الثلاثة .

قال : ((فذلك هذا أنه لم يكن متمتعاً قطعاً ، خلافاً لزاعمي ذلك من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم))

قال : ((وقدم علي عليه السلام من اليمن فقال له ﷺ : " بم أهلت ؟ ")) ؛ والأنسك ثلاثة : قرآن ، وتمتع ، وإفراد .

((قال : بإهلال إهلال النبي ﷺ)) ؛ يعني لما أهل في الميقات أهل بإهلال إهلال النبي ، أيًا كان إهلال النبي ﷺ .

((فقال له النبي ﷺ : " إني سقت الهدى وقرئت " روى هذا اللفظ أبو داود وغيره من الأئمة بإسناد صحيح)) .

قال الحافظ بن كثير : ((فهذا صريح في القرآن)) ؛ قال : قرئت .

((وقدم علي عليه السلام من اليمن هدياً)) ؛ قدم معه في مجيئه هذا هدياً ساقه من اليمن ، إذاً يكون علي عليه السلام ساق الهدى وأهل بإهلال النبي عليه الصلاة والسلام ، وإهلال النبي ﷺ هو القرآن .

((فأشركه ﷺ في هديه أيضاً)) ؛ يعني إضافةً إلى ذلك أشركه النبي ﷺ في هديه .

((فكان حاصلهما مائة بدنة)) ؛ يعني ما جاء به النبي ﷺ وما جاء به علي معه من اليمن مئة بدنة .

قال : ((ثم خرج ﷺ إلى منى فبات بها وكانت ليلة الجمعة التاسع من ذي الحجة ، ثم أصبح فسار إلى عرفة وخطب بنمرة خطبة عظيمة شهدها من أصحاب النبي ﷺ نحواً من أربعين ألفاً رضي الله عنهم أجمعين ، وجمع بين الظهر والعصر ثم وقف ﷺ بعرفة . ثم بات بالمزدلفة وجمع بين المغرب والعشاء ليلئذ ، ثم أصبح فصلى الفجر في أول وقتها)) ؛ صلى الفجر في أول وقتها ووقف عليه الصلاة والسلام يذكر الله ﷻ عند المشعر الحرام وبقي إلى أن أسفرت ، يعني قبل طلوع الشمس .

((ثم سار قبل طلوع الشمس إلى منى)) ؛ أفاض وانتقل عليه الصلاة والسلام من مزدلفة إلى منى .

((فرمى جمرة العقبة ونحر وحلق ثم أفاض ، فطاف بالبيت طواف الفرض - وهو طواف الزيارة - واختلف أين صلى الظهر يومئذ ، وقد أشكل ذلك على كثير من الحفاظ . ثم

حل من كل شيء حُرْم منه ﷺ)) جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام صلى الظهر بمنى ، وفي صحيح مسلم من حديث جابر أنه صلاها بمكة وكذلك قالت عائشة رضي الله عنها . والإمام العلامة ابن القيم في الزاد مال إلى ترجيح حديث ابن عمر أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى الظهر بمنى ، يعني بعد أن رمى وحلق ونحر ذهب وطاف ورجع إلى منى وصلى الظهر بها صلوات الله وسلامه عليه .

وبعض الحجاج يفضل أن يبقى في مكة يصلي أوقاتاً ، بينما الهدي وسنة النبي عليه الصلاة والسلام في يوم النحر وأيام التشريق أن يبقى المسلم في منى وأن يكون ذهابه إلى مكة لأداء الفرض الذي عليه - فرض الطواف والسعي - ثم يرجع ، لأن أعماله في منى وصلواته في منى وبقائه في منى هذا هو الأصل .

قال : ((وخطب ثاني يوم النحر خطبة عظيمة أيضاً ، ووصى وحذّر وأنذر وأشهدهم على أنفسهم بأنه بلغهم الرسالة صلوات الله وسلامه عليه)) ؛ والنبي عليه الصلاة والسلام ثبت عنه أنه خطب يوم عرفة خطبة عظيمة جداً ، وأيضاً ثبت عنه أنه خطب في يوم النحر ، وفي أوساط أيام التشريق ، وأيضاً سُمعت منه عليه الصلاة والسلام مواعظ عظيمة وبلغية في أثناء حجه كلها داخلة في باب وصية المودع ولها أهمية عظيمة ومكانة عالية ، وكنت قد جمعتها في رسالة طُبعت مفردة بعنوان « خطب ومواعظ من حجة الوداع » ؛ ذكرتُ فيها خطبة النبي عليه الصلاة والسلام في عرفة وأيضاً خطبته في يوم النحر وأوساط أيام التشريق ، والمواعظ التي سُمعت منه عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع ، وهي وصايا ومواعظ وخطب ثمينة جداً يحتاجها كل مسلم ، ويحتاجها الحاج على وجه الخصوص ، لأنها هذه وصايا مودع لها شأنها ومكانتها العظيمة ومنزلتها العلية .

وكان عليه الصلاة والسلام في نهاية الخطبة يُشهد الناس أنه بلغ ، وهذا أيضاً من الوداع ، فكان هذه الجموع الغفيرة أمامه عليه الصلاة والسلام فلما خطبهم وفرغ من خطبته عليه الصلاة والسلام كان يشير بإصبعه إليهم يقول ((ألا هل بلغت ؟)) فيقول الناس : نعم ، فيرفع يده عليه الصلاة والسلام إصبعه إلى السماء ويقول : ((اللهم اشهد)) . ثم ينزل إصبعه إليهم ويقول : ((ألا هل بلغت)) . ثم يرفع إصبعه إلى السماء ويقول : ((اللهم فاشهد)) ؛ هذا قول الحافظ ابن كثير : ((وأشهدهم على أنفسهم بأنه بلغ الرسالة)) .

قال الإمام بن كثير رحمه الله : ((فنحن نشهد أنه بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين)) ؛ وبهذا تكون انتهت حجة الوداع العظيمة المباركة التي ودع فيها الناس وكان ممّا قال عليه الصلاة والسلام : ((لَعَلِّي لَا أَلْفَأُكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا)) .

ولما كان في عرفة نزل عليه ﷺ عشية عرفة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ولم يعيش بعد نزول هذه الآية زمناً طويلاً ، وأيضاً لم ينزل بعدها في هذه المدة التي عاشها بعد نزول هذه الآية حلال ولا حرام ، بل الدين كمثل والحلال والحرام كله يُبَيَّن ، وعاش عليه الصلاة والسلام بعد ذلك مدة هي أقل من ثلاثة أشهر . وهذه الآية تعني تمام الدين وكماله وأن الواجب على عموم الناس أن يلزموا شرع الله وأن يتمسكوا بما جاء عن رسول الله ﷺ وأن يحذروا من البدع والمحدثات التي يُدخلها عليهم المدخلون من باب الاستحسان ، وقد قال الإمام مالك رحمه الله : " من قال في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله يقول : {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} فما لم يكن ديناً زمن محمد صلى الله عليه وسلم فلن يكون اليوم ديناً ولن يكون ديناً إلى قيام الساعة " ؛ أي عمل لم يكن موجوداً زمن النبي ﷺ يُقصد به التقرب إلى الله جل وعلا فلن يكون ديناً إطلاقاً . وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) .

قال الإمام بن كثير : ((ثم أقبل ﷺ منصرفاً إلى المدينة)) ؛ وكان أقام بمكة عشرة أيام ، أي أن المدة التي قضاها من حين وصوله إلى مكة إلى خروجه منها مماثلة لمدة الطريق الذي قضاها بين مكة والمدينة عشرة أيام كما جاء في صحيح البخاري من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه .

وفي طرق العودة وهو راجع عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة لما وصلوا إلى غدير يُقال له غدير حُـم - وهو قريب من الجحفة أحد المواقيت المكانية - خطبهم أيضاً عليه الصلاة والسلام هناك خطبة ثابتة في صحيح مسلم من حديث زيد بن أرقم أوصاهم فيها بكتاب الله قال : ((أوصيكم بكتاب الله)) - هذه الوصايا التي هي وصايا المودّع لها شأنها ولها مكانتها ولها منزلتها - قال في وصيته : ((أذكركم الله في أهل

بيتي وأذكركم الله في أهل بيتي وأذكركم الله في أهل بيتي ((مع الوصية بكتاب الله يوصي ويذكر بأهل البيت ، وأهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام لهم مكانتهم العلية ومنزلتهم المنيفة ودرجتهم العالية ، والمسلمون يحفظون لأهل البيت مكانتهم ويرعون لهم حقهم ويعرفون الواجب نحوهم ولهم حقوق محفوظة وواجبات معروفة ، والواجب على كل مسلم أن يرعى لآل بيت النبي ﷺ حقهم عملاً بوصية النبي صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الحفظ لحق آل البيت والمعرفة بقدرهم وواجبهم لا يُعرف حقيقة ولم يقم به حقيقةً على الوجه الصحيح المطلوب إلا عند أهل السنة والجماعة ، فأهل السنة والجماعة أكرمهم الله بمعرفة حق آل البيت والقيام بحقوق آل البيت دون غلو أو جفاء ، لأن بعض الناس لهم ممارسات خاطئة يظنون أنها من القيام بحق آل البيت ، مثلاً : يعبد أحداً من آل البيت من دون الله ويظن أن هذا حق من حقوق أهل البيت !! أو مثلاً يستغيث به أو يعتقد أنه يعلم الغيب ويعلم ما كان وما سيكون ... الخ ويظن أن هذه من حقوق آل البيت !! هذه حقوق الله رب العالمين لا شريك له ﷻ في شيء من ذلك . فلا يُعرف إطلاقاً من حفظ لآل البيت حقهم ورعى لهم مكانتهم وحفظ وصية النبي ﷺ فيهم إلا أهل السنة والجماعة ، فإنهم رعوا لأهل البيت حقهم وعرفوا لهم مكانتهم بدءاً بصديق الأمة أبي بكر ﷺ وهو مثال مسدد في حفظ وصية النبي ﷺ في آل بيته ، ومن يقرأ تاريخ أبي بكر ﷺ وقصصه العظيمة في احترامه وتوقيره ورعايته ومعرفته بحقوق آل البيت يجد عجباً من الرعاية العظيمة والعناية البالغة منه ﷺ بآل البيت ، والشواهد في سيرته على ذلك كثيرة .

الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام لما وصل إلى هذا الغدير خطب الناس وأوصاهم هذه الوصية العظيمة .

ثم بعد أن وصل ﷺ إلى المدينة - بعد الحج بشهرين أو أكثر من الشهرين بقليل - بدأ يجهز جيش أسامة ويجهزه هذا الجيش لغزو الروم ، وتحت الجيش المهاجرين والأنصار وأعيان الصحابة وكبارهم الخ ، فأمر على هذا الجيش أسامة ابن زيد ، وكان عمره في ذلك الوقت ثمان عشرة سنة ، وأيضاً هو من الموالى !! - اثنتان - ولهذا بعض الصحابة كأنه وجد في نفسه أن يؤمر على الجيش أسامة ابن زيد ، فجاء في الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((إِنْ تَطَعْنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَقَدْ كَانَ

خَلِيفًا لِلْإِمَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ)) وهذا
يبين فيه عليه الصلاة والسلام حبه لزيد والد أسامة الذي كان أمّره على مؤتة واستشهد هناك
، وهنا أمّر ابنه أسامة ابن زيد وبين مكانته وأنه رضي الله عنه مثل والده من أحبّ الناس إلى النبي صلّى الله عليه وآله
، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام تُوفي قبل أن ينطلق هذا الجيش لغزو الروم ، ولما تولى أبو
بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة بدأ أول ما بدأ بإنفاذ جيش أسامة عملاً بتوجيه ووصية النبي الكريم
صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .